د. محمد مجاهد الزيات

مستشار المركز الإقليمي للدراسات الاستراتيجية بالقاهرة

كيف يفكر بشار الأسد؟

لايزال النظام السوري ورئيسه بشار الأسد يتمسك بالسلطة ويستعصي على السقوط، في وقت تداخلت فيه الأجندات الإقليمية والدولية في الأزمة وأنعشت التنظيمات الإرهابية من سوريا إلى الإقليم ومن الإقليم إلى سوريا.

ومع أن كثيرين يرون أن بشار هو الأقدر على وقف نزيف الدم السوري؛ فإن المخرج الأنسب لاستعادة الدولة السورية ومنع تفككها يتمثل في تنحيه عن السلطة مع بعض أركان نظامه، مع الإبقاء على كيان الدولة والنظام من الانهيار.. فهل يملك بشار شجاعة مثل هذا القرار، وكيف يرى الأزمة السورية وأبعادها وكيف يفكر في التعامل معها؟.

إن التعرف على رؤية الأسد لحاضر ومستقبل الأوضاع في سوريا تتطلب الاقتراب من تكوينه الشخصي وتوجهاته السياسية ومحاولة الوقوف على العوامل التي تشكل رؤيته وتحكم قراراته السياسية والعسكرية، والتي تؤكد جميعها أنه محكوم من نخبة أمنية وسياسية وعسكرية ساندته قبل توليه الحكم وبعده، وأنه ضيق الخناق أمام حرية حركته التي باتت تصنع في طهران.

أولاً: التكوين والخبرات المكتسبة

دخل بشار الأسد السلطة بمساراتها المختلفة، السياسية والعسكرية والحزبية، فجأة ومن دون استعداد مسبق. فلم ينخرط في أي من مؤسساتها المختلفة، إلى أن تم استدعاؤه من لندن، حيث كان يعد رسالة علمية في تخصص طب العيون، بعد الوفاة المفاجئة لشقيقه باسل عام 1994، والذي كان يتم إعداده ليكون وريث سلطة أبيه.

وبدأت عملية إعداد بشار على عجل ليشغل مكان شقيقه، فأُلحِق بالجيش كملازم أول عام 1994 وتدرج فجائياً حتى رُقي إلى رتبة فريق في عام 2000 بعد وفاة والده وعين قائداً عاماً للقوات المسلحة التي لم يلتحق بها أكثر من 6 سنوات. كما تم تعديل الدستور ليصبح من حقه رئاسة الجمهورية، وهو دون سن الأربعين، وهكذا وجد نفسه في فترة وجيزة على قمة الهرم السياسي والحزبي والعسكري من دون خبرات متراكمة.

ثانياً: دور النخبة السورية

لا شك أن النخبة، الحزبية والعسكرية والسياسية والأمنية، التي تحيط بالرئيس السابق حافظ الأسد رأت في ترقي بشار الطريقة الأمثل للحفاظ على مصالحها ودورها، وساندته في ذلك إلى الحد الأقصى، لأن عدم خبرته يتيح لها مجالاً ودوراً أوسع في المستقبل؛ فبدأ بشار ولايته رئيساً متواضع الخبرة والكفاءة في بلد يقع في مهب رياح إقليمية ودولية عاتية، وحاول الاقتراب من شعبه من خلال بعض التوجهات الإصلاحية التي أعلن عنها في المؤتمر العاشر للحزب الذي تأخر انعقاده عشر سنوات (من 1995 إلى 2005)، إلا أن الصراع داخل النظام كان يزداد تبلوراً على وقع خلافات حول قضايا استراتيجية عاش داخلها النظام طويلاً خاصة التطورات اللبنانية، وما يسمى بمحور الممانعة والموالاة وغيرها.

وتفوقت النخبة العسكرية والأمنية على حساب النخبة السياسية والحزبية، فاستبعدت قيادات تصدرت الواجهة السورية لسنوات مثل عبدالحليم خدام نائب الرئيس ليصطف في جانب المعارضة، خاصة بعد اغتيال صديقه رفيق الحريري، وتوارت قيادات عسكرية مثل العماد مصطفى طلاس الذي كان سنداً للنظام، وبدا بشار محاصراً من قيادات عسكرية وأمنية أكثر انغلاقاً على

الطائفة بالدرجة الأولى.

وقد تصدرت المشهد قيادات عسكرية تستند للولاء الشخصي للرئيس، مثل شقيقه اللواء ماهر الأسد، وزوج شقيقته نائب رئيس الأركان، الذي قتل في تفجير القيادة العسكرية، وحدثت تغييرات في القيادة القطرية لحزب البعث استبدلت خلالها قيادات تاريخية بأخرى أكثر قرباً من الرئيس والعائلة، وازداد دور المؤسسة الأمنية وتراجع الرئيس عن دعاوى الإصلاحات السياسية.

ثالثاً: البيئة الإقليمية والدولية

استثمر نظام بشار بعض أوراقه الإقليمية خاصة خبرته ومعلوماته عن الفصائل المتطرفة في العراق ولبنان للتعامل مع أجهزة المخابرات الأمريكية والأوروبية التي خففت من الضغوط عليه لعمل إصلاحات سياسية بعد انسحاب القوات السورية مرغمة من لبنان.

وتزامن ذلك مع تردي العلاقات السورية مع كل من السعودية ومصر؛ فزادت عزلته الإقليمية، ليقترب أكثر من إيران التي هيمنت على حركة وتوجهات النظام، واندفع أمام ضغوط الغرب صوب روسيا وإيران، ففقد كثيراً من المرونة التي كان يلتزم بها والده في التعامل مع إيران وروسيا، بحيث أصبحت سوريا جزءاً من استراتيجية الدولتين، ولا تملك خيار الحركة المتحررة بعيدة عنهما.

رابعاً: بشار.. الثورة وما بعدها

بدا بشار قبل الثورات العربية رئيساً متواضع الخبرة، غامضاً غير مباشر، يمارس الازدواجية السياسية في خطابه إلى شعبه، محاصراً من نخبة عسكرية وأمنية دمجت النظام في الدولة؛ وبالتالي لم تؤمن هذه النخبة بأن هناك حلاً سياسياً للأزمة منذ البداية، وابتدعت بعد أشهر من اندلاع الثورة فكرة أن كل المعارضين إرهابيون يريدون إسقاط الدولة، وأنها ستذهب إلى نهاية الطريق دفاعاً عن كيان الدولة، وأضحى بشار أسيراً ومحاصراً من هذه النخبة التي غلبت المصالح الذاتية والطائفية.

وقد ارتكز فكر، وبالتالي سلوك بشار، منذ هذا الوقت على عدة أبعاد، من أبرزها:

1- يتصور أن الأزمة السورية ليست أزمة حكم ومطالب شعب، لكنها مؤامرة دولية لتفكيك الدولة. ولا يعتقد أن محاصرة الحريات وغياب المشاركة وغيرها، هيأت المناخ للوصول إلى ما وصلت إليه سوريا الآن. ويتبنى فكر والده نفسه بأن سوريا هي الدولة التي يتعين عليها حماية المنطقة ومواجهة التهديدات الدولية والإقليمية، وأن هذا قدرها.

2- لا ينزعج بشار من التدمير الذي تشهده سوريا ولا نزيف الدم المتواصل، ويرى حتى الآن أن تقديم أية تنازلات سياسية أو عسكرية يمكن أن يؤدي إلى انهيار الدولة. ولأن النظام على مدى أكثر من 40 عاماً قام بدمج الجيش في الحزب في أجهزة الأمن في الطائفية، بحيث أصبحوا كتلة واحدة، فإن سقوط هذه الكتلة يعني سقوط النظام، ولذا يتصور أنه طالما لم يحدث انقسام استراتيجي أو انهيار كبير في هذه المكونات الأربعة، سيبقى موقفه كما هو عليه.

> هناك مرتكزات أساسية تحكم فكر وسلوك بشار الأسد، فهو يتصور أن الأزمة السورية مؤامرة دولية لتفكيك الدولة، ولا ينزعج ونخبته الأمنية والعسكرية من نزيف الدماء. ويؤمنون باستخدام العنف حلاً، ويمارسون انتهازية فجة، ويخضعون في حركتهم لإيران.

3- يؤمن بشار بتجربة والده في استخدام العنف، كما حدث من إعمال المنهج العسكري في أزمة حماة لدى مواجهة جماعة الإخوان آنذاك، والعملية العسكرية والأمنية التي استوعبت النشاط المعارض.

4- يمارس نظام بشار انتهازية سياسية فجة، فهو يتحدث عن مبادئ مثل قتال الإرهابيين، لكنه يدخل في صفقة مع واشنطن يسلم من خلالها مخزون سوريا من السلاح الكيماوي للمحافظة على استمرار النظام، ليفتقد بذلك إحدى أوراق المساومة والسعي للتوازن مع إسرائيل. أيضاً تغاضى بشار عن تجاوزات الحملة الدولية لمكافحة الإرهاب التي اجتاحت المجال الجوي السوري لضرب "داعش"، بل ثمة تنسيق أو اتفاقات مسبقة بهذا الخصوص.

خامساً: نسق عقدي جامد

والسؤال الآن، ما هي توجهات بشار في ظل الواقع الحالي للأزمة السورية؟

من الثابت أن فكر بشار الأسد لايزال على ما هو عليه منذ بداية الثورة، وهو ما ساهم بصورة كبيرة في تصدر النخبة العسكرية والأمنية للمشهد السياسي وأصبحت الدائرة الأكثر قرباً منه وزاد اعتماده عليها، كما أن التباعد الإقليمي وخسارة أوراق الضغط والمساومة جعلاه وجعلا سوريا جزءاً من الاستراتيجية الإيرانية والروسية في المنطقة.

والغريب أنه لايزال يقرأ التطورات في الأزمة السورية وفقاً لمعطيات الأطراف الإقليمية والدولية، فعندما أعلن المجتمع الدولي أن "داعش" و"النصرة" و"أحرار الشام" تنظيمات إرهابية، وتم حشد الحملة الدولية للقضاء عليها، لم ينتهزها فرصة للتصالح الداخلي وطرح خيارات للحل السياسي، بل وقف عند تفسيره السابق للأزمة من أن كل المعارضين إرهابيون، واعتبر الموقف الدولي شهادة على حق تقديره وموقفه.

لهذا أحسب أن تكوين وخبرات الأسد ونسقه الفكري ودوائر صنع القرار في دمشق ومواقف ومصالح النخبة العسكرية والأمنية بالدرجة الأولى، سوف تحكم موقف النظام خلال المرحلة القادمة، لأنه لن يبادر بتقديم تنازلات ويساعده على ذلك أن الظروف لاتزال تخدم النظام، فلا يوجد بديلاً مؤهلاً لتولي السلطة، حيث المعارضة السياسية تفتقد للتأثير الميداني والمعارضة العسكرية الفعالة أغلبها، إن لم يكن معظمها، تنظيمات إما متطرفة أو أشد تطرفاً ولا تؤمن بالحل السياسي ونجحت في تصفية معظم الفصائل المعتدلة التي هربت بعض قياداتها إلى الخارج.

كما أن الحملة الدولية على تلك المنظمات أفادت النظام، وسوف تدفع نظام بشار إلى مزيد من التشدد مع أية جهود لحل الأزمة، وهو ما يستبعد معه تقديم أية تنازلات، فلن يغادر السلطة طواعية مهما كانت الظروف، حتى مع إن حرية حركته لم تعد كبيرة وموقفه يرتهن كثيراً بالموقفين الإيراني والروسي، فقد باتت مواقف هاتين الدولتين هي العامل الحاكم في حجم وتوقيت ما يقدمه النظام من تنازلات خلال الفترة القادمة.